بين غزة جنوباً وأنطاكيا شمالاً، ثم تتجه شرقاً وتمتد حتى تصل إلى الغرب[1].

❑❑

الخطر في الوحدة الإسلامية

ورد في تقرير وزير المستعمرات البريطانية (أورمس غوم) لرئيس حكومته في 19/ 1/ 1938: «إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه، ومن دواعي فرحنا أن الخلافة الإسلامية زالت. إن سياستنا تهدف دائماً وأبداً إلى منع الوحدة الإسلامية أو التضامن»[2].

❑❑

القرآن والكعبة

وإنك لتسمع الرئيس الإنجليزي(غلادستون) يصرح في علانية في أواخر القرن الماضي: وقف هذا الرجل في مجلس العموم يصيح في أعضائه: «إن العقبة الكؤود أمام استقرارنا بمستعمراتنا في بلاد الإسلام شيئان ولا بد من القضاء عليهما مهما كلفنا الأمر: أولهما هذا الكتاب يعني ـ القرآن الكريم، وكان ممسكاً بيديه ـ وسكت قليلاً ثم اتجه من المنصة نحو الشرق مشيراً بيده اليسرى قائلاً: «وهذه الكعبة».

❑❑

(1) قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله، جلال العالم، ص: 60.
(2) هموم الداعية، محمد الغزالي، ص: 88.

انهيار الحضارة الغربية

يقول الشهيد د. عبد الله عزام: لقد أوشكت انهيار الحضارة الغربية، لأنها أرادت أن تطير بجناح واحد (الجناح المادي) وأرادت أن تتعامى عن طبيعة الإنسان، فما استطاعت أن تقوم على رجل واحدة.

وحاولت أوروبا أن تقيم من العقل إلٰهاً يسد الفراغ النفسي الرهيب، ونصبت تمثالاً لإلٰه العقل في إحدى المدن الفرنسية وهو صورة أجمل امرأة في باريس، ودفعت بأمثال هيجل ونيتشه لسد الفراغ من خلال (المدرسة المثالية)، ولكن هيهات. وجاء كومت لينصّب الطبيعة إلٰهاً مقام الكنيسة، وجاء ماركس ليقيم من الاقتصاد إلٰهاً يسد الفراغ ويفسر التاريخ ويحلل سير الجنس البشري، كل هذه المحاولات باءت بالفشل الذريع.

ويتكهن بذبول الحضارة عن وقت قريب ويقول: إنني ألمح الذبول في فرعي الحضارة (الغربي، والشرقي) ولكنني أرى أن الضمور والاصفرار في الفرع الشرقي أشد وأكثر، هذا مع تأكدي ـ والله أعلم ـ أن الشجرة بفرعيها ستذوي وليس زمن سقوطها نهائياً بعيداً؛ لأنها سنة الله[1] ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾[2]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[3]، ﴿وَلَا

(1) الإسلام ومستقبل البشرية، د. عبد الله عزام، ص: 22، ط2، 1982.
(2) سورة يونس، الآية: 13.
(3) سورة يونس، الآية: 81.

يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[1] ولقد تحقق هذا التنبؤ وانهارت الأيديولوجية الشيوعية، وبقي أن نرى ضمور وسقوط الفرع الغربي من الشجرة الخبيثة.

□□

شهادة سائح مسلم

يقول المفكر الراحل سيد قطب: لقد كنت في أثناء وجودي في أمريكا، أرى رأي العين مصداق قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾[2] فإن المشهد الذي ترسمه هذه الآية، مشهد تدفق كل شيء من الخيرات والأرزاق بلا حساب: لا يكاد يتمثل في الأرض كلها كما يتمثل هناك! وكنت أرى غرور القوم بهذا الرخاء الذي هم فيه، وشعورهم بأنه وقف على(الرجل الأبيض) وطريقة تعاملهم مع الملونين في عجرفة، وفي صلف على أهل الأرض كلهم لا يقاس إليه صلف النازية الذي شهر به اليهود في الأرض كلها حتى صار علماً على الصلف العنصري.

بينما الأمريكي الأبيض يزاوله تجاه الملونين في صورة أشد وأقسى وخاصة إذا كان هؤلاء الملونين من المسلمين.

كنت أرى هذا كله فأذكر هذه الآية، وأتوقع سنة الله، وأكاد أرى خطواتها وهي تدب إلى الغافلين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ

(1) سورة فاطر، الآية: 43.
(2) سورة الأنعام، الآية: 44.

ظَلَمُوا۟ ۗ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

وإذا كان الله قد رفع عذاب الاستئصال بعد بعثة الرسول ﷺ فهناك ألوان من العذاب باقية، فإنّ العذاب النفسي، والشقاء الروحي، والشذوذ الجنسي، والانحلال الخلقي، والذي تقاسي منه هذه الأمم ليكاد يغطي على الإنتاج والرخاء والمتاع وليكاد يصبغ الحياة كلها بالنكد والقلق والشقاء[2].

والآن طلع عليهم مارِدٌ فغزاهم في عقر دارهم، هذا المارد هو (الإيدز) الذي قضى على ألوف من المنحرفين وما زال، ولا يستطيعون درءه والخلاص منه، فهذه هي عقوبة العاصين والخارجين عن الدستور الإلٰهي.

❑❑

دستور الدعوة إلى الله تعالى

قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[3].

---

(1) سورة الأنعام، الآيتان: 44، 45.

(2) في ظلال القرآن لسيد قطب (7/ 217).

(3) سورة النحل، الآيات: 125 ـ 128.

على هذه الأسس يرسي القرآن الكريم قواعد الدعوة ومبادئها، ويعين وسائلها وطرائقها، ويرسم المنهج للرسول الكريم، وللدعاة من بعده بدينه القويم، فلننظر في دستور الدعوة الذي شرعه الله في هذا القرآن.

إن الدعوة دعوة إلى سبيل الله، لا لشخص الداعي ولا لقومه، فليس للداعي من دعوته إلّا أنه يؤدي واجبه لله، لا فضل له يتحدث به، لا على الدعوة ولا على من يهتدون به، وأجره بعد ذلك على الله.

والدعوة بالحكمة، والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها، والطريقة التي يخاطبهم بها، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها فلا تبدو به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه.

وبالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب ولا بفضح الأخطاء التي تقع عن جهل أو حسن نية. فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ وبالجدل بالتي هي أحسن، بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح، حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق.

فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلّا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة،

وسرعان ما يختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس، فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلاً عن هيبتها واحترامها وكيانها، والجدل بالحسن هو الذي يطامن من هذه الكبرياء الحساسة ويشعر المجادل أن ذاته مصونة، وقيمته كريمة، وأن الداعي لا يقصد إلّا كشف الحقيقة في ذاتها والاهتداء إليها في سبيل الله لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمته الرأي الآخر. ولكي يطامن الداعية من حماسه واندفاعه يشير النص القرآني إلى أن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو الأعلم بالمهتدين. هذا هو منهج الدعوة ودستورها ما دام الأمر في دائرة الدعوة باللسان والجدل بالحجة، فأما إذا وقع الاعتداء على أهل الدعوة فإن الموقف يتغير، فالاعتداء عمل مادي يدفع مثله إعزازاً لكرامة الحق، ودفعاً لغلبة الباطل، على أن لا يتجاوز الرد على الاعتداء حدوده إلى التمثيل والتفظيع. فالإسلام دين العدل والاعتدال ودين السلم والمسالمة ، إنما يدفع عن نفسه وأهله البغي ولا يبغي: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ﴾[1]، وليس ذلك بعيداً عن دستور الدعوة فهو جزء منه، فالدفع عن الدعوة في حدود القصد والعدل يحفظ لها كرامتها وعزتها فلا تهون في نفوس الناس، والدعوة المهينة لا يعتنقها أحد، ولا يثق أنها دعوة الله، فالله لا يترك دعوته مهينة، فالدفاع عن نفسها والمؤمنون بالله لا يقبلون الضيم وهم دعاة الله.

(1) سورة النحل، الآية: 126.

ومع تقرير قاعدة القصاص بالمثل، فإن القرآن الكريم يدعو إلى العفو والصبر حين يكون المسلمون قادرين على دفع الشر ووقف العدوان، فأما إذا كان العفو والصبر يهينان دعوة الله فالقاعدة الأولى (القصاص بالمثل) هي الأولى.

ويوصي القرآن الكريم رسول الله ﷺ - وهي وصية لكل داعية من بعده - ألا يأخذه الحزن إذا رأى الناس لا يهتدون، فإنما عليه واجبه يؤديه، والهدى والضلال بيد الله وفق سننه في فطرة النفوس واستعداداتها واتجاهاتها ومجاهدتها للهدى أو للضلال.

هذا هو دستور الدعوة إلى الله كما رسمه الله، والنص مرهون باتباعه كما وعد الله، ومن أصدق من الله.[1].

❑❑

طريق الدعوة إلى الله

وأصحاب الدعوات لا بد أن يتحملوا تكاليفها، وأن يصبروا على التكذيب بها، والإيذاء من أجلها. وتكذيب الصادق الواثق مرير على النفس حقاً، ولكنه بعض تكاليف الرسالة. فلا بد لمن يكلفون حمل الدعوات أن يصبروا ويحتملوا ويثبتوا، ولا بد أن يكرروا الدعوة، ويبدؤوا فيها ويعيدوا.

إنهم لا يجوز لهم أن ييأسوا من صلاح النفوس واستجابة

(1) في ظلال القرآن (14/ 292).

القلوب مهما واجهوا من إنكار وتكذيب، ومن عتوٍ وجحود. فإذا كانت المرة المئة لم تصل إلى القلوب فقد تصل المرة الواحدة بعد المئة وقد تصل المرة الواحدة بعد الألف، ولو صبروا هذه المرة وحاولوا ولم يقنطوا لتفتحت لهم إرصاد القلوب. إن طريق الدعوات ليس هيناً ليناً، واستجابة النفوس للدعوات ليست قريبة يسيرة، فهناك ركام من الباطل والظلال والتقاليد والعادات(*) والنظم الأوضاع، يجثم على القلوب ولا بد من إزالة هذا الركام. ولا بد من استحياء القلوب بكل وسيلة، ولا بد من لمس جميع المراكز الحساسة، ومن محاولة العثور على العصب الموصل... وإحدى اللمسات ستصادف مع المثابرة والصبر والرجاء، ولمسة واحدة قد تحول الكائن البشري تحويلاً تاماً في لحظة متى أصابت اللمسة موضعها.

وإن الإنسان ليدهش أحياناً وهو يحاول ألف محاولة، بلمسة عابرة تصيب موضعها في الجهاز البشري فينتفض كله بأيسر مجهود. وقد أعيا من قبل كل الجهود!

وأقرب ما يحضرني للتمثيل لهذه الحالة جهاز الاستقبال

(*) جبران خليل جبران:

التعليم بالضدّ:

تعلمت الصمت من الثرثار

وتعلمت الاجتهاد من الكسلان

وتعلمت التواضع من المتكبر

والغريب إني لا أقر بفضل هؤلاء المعلمين!

عند محطة إرسال. إنك لتحرك المشير مرات كثيرة ذهاباً وإياباً فتخطئ المحطة وأنت تدقق وتصوب، ثم إذا بحركة عابرة من يدك فتصل الموجة وتنطلق الأصداء والأنغام.

إن القلب البشري هو أقرب ما يكون إلى جهاز الاستقبال، وأصحاب الدعوات لا بد أن يحاولوا تحريك المشير ليتلقى القلب من وراء الأفق، ولمسة واحدة بعد ألف لمسة قد تصله بمصدر الإرسال . وإن في قصة أيوب عليه السلام لدرس لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتأملوه، وإن في رجعة ذي النون إلى ربه واعترافه بظلمه، لعبرة لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتدبروها، وإن في رحمة الله لذي النون واستجابة دعائه لبشرى للمؤمنين ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: 88][1].

❑❑

حكمة وأثر المنابر الإسلامية

يروي الكاتب القدير الشيخ علي الطنطاوي هذه الحادثة للاعتبار والتأمل للاستئناس: كان وفد من العلماء يزور واحداً من كبار أولي الأمر من عهد قريب، ويشكون إليه فساد الأخلاق، وانتشار المعاصي، وهذه المنكرات البادية فقال لهم: أنا أعجب من أمركم، عندكم هذه المنابر التي تستطيعون أن تصلحوا بها كل فاسد وتقوّموا كل معوج ثم تشكون إليّ ما تجدون؟

(1) في ظلال القرآن 17/ 556.

وهي كلمة أجراها الله على لسانه لتقوم به الحجة علينا مرتين!

مرة: لأنها كلمة حق لا ينازع في صحتها منازع.

ومرة: لأنها جاءت موعظة منه لمن يتصدون لوعظ الناس[1].

ولله در القائل:

إن المنابر في الإسلام ما نصبت
إلّا لترفع صوت الحق في الناس
فاختر لأعوادها من لا يلين له
في الحق عود ولا يصغي لخنّاس

يقول الكاتب الكبير مصطفى صادق الرافعي رحمه الله؛ في حكمة هذه المنابر الإسلامية: فما يريد الإسلام إلّا أن تكون كمحطات الإذاعة، يلتقط كلّ منبرٍ أخبار الجهات الأخرى ويُذيعها في صيغة الخطاب إلى الروح والعقل والقلب، فتكون خطبة الجمعة هي الكلمة الأسبوعية في سياسة الأسبوع أو مسألة الأسبوع؛ وبهذا لا يجيء الكلامُ على المنابر إلّا حيًّا بحياة الوقت، فيصبحُ الخطيب ينتظره الناس في كل جمعة انتظار الشيء الجديد ومن ثَم يستطع المنبرُ أن يكون بينه وبين

(1) فصول إسلامية، علي الطنطاوي، ص: 85، ط1، مطبعة دار المنابر. دمشق، 1960.

الحياة عمل[1].

❑❑

صراع مع الملاحدة

ننقل لك أيها المسلم المعاصر هذه المناقشة الحادة بين الإيمان والإلحاد وبين الحق والباطل، بين شيخ الدعاة محمد الغزالي ومع أعتى ملحد معاصر، يقول الشيخ الغزالي: دار بيني وبين أحد الملاحدة جدال طويل، ملكت فيه نفسي وأطلت صبري حتى ألقى آخر ما في جعبته من إفك وأدمغ بالحجة الساطعة ما يوردون من شبهات...

قال: إذا كان الله قد خلق العالم فمن خلق الله؟

قلت له: كأنك بهذه السؤال أو بهذا الاعتراض تؤكد أنه لا بد لكل شيء من خالق!

قال: لا تلقني في متاهات، أجب عن سؤالي.

قلت له: لا لف ولا دوران، إنك ترى أن العالم ليس له خالق، أي أن وجوده من ذاته دون حاجة إلى موجد، فلماذا تقبل القول بأن هذا العالم موجود من ذاته أزلاً وتستغرب من أهل الدين أن تقولوا: أن الله الذي خلق العالم ليس لوجوده أول؟

إنها قضية واحدة، فلماذا تصدق نفسك حين تقررها

(1) وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي (2/ 247)، الناشر: دار الكتب العربي. بيروت.

وتكذب غيرك حين يقررها، وإذا كنت ترى أن إلهاً ليس له خالق خرافة، فعالم ليس له خالق خرافة كذلك، وفق المنطق الذي تسير عليه.

قال: إننا نعيش في هذا العالم ونحس وجوده فلا نستطيع أن ننكره!

قلت له: ومن طالبك بإنكار وجود العالم؟

إننا عندما نركب عربة، أو باخرة، أو طائرة تنطلق بنا في طريق رهيب فتساؤلنا ليس في وجود العربة، وإنما هو: هل تسير وحدها أم يسيرها قائد بصير.

ومن ثم فإنني أعود إلى سؤالك الأول لأقول لك: إنه مردود عليك، فأنا وأنت معترفان بوجود قائم، لا مجال لإنكاره، تزعم أنه أوّل له بالنسبة إلى المادة وأرى أنه لا أول لها بالنسبة إلى خلقها.

فإذا أردت أن تسخر من وجود لا أول له، فاسخر من نفسك قبل أن تسخر من المتدينين. . . .

قال: تعني أنّ الافتراض العقلي واحد بالنسبة إلى الفريقين؟

قلت: إنني أسترسل معك لأكشف الفراغ والادعاء اللذين يعتمد عليهما الإلحاد وحسب، أما الافتراض العقلي فليس سواء بين المؤمنين والكافرين إنني ـ أنا وأنت ـ ننظر إلى قصر قائم، فأرى بعد نظرة خبيرة أن مهندساً أقامهُ، وترى أنت أن خشبة وحديدة وحجرة وطلاء قد انتظمت في مواضعها وتهيأت

لساكنيها من تلقاء نفسها...

الفارق بين نظرتينا إلى الأمور أنني وجدت قمراً صناعياً يدور في الفضاء فقلت أنت: (انطلق وحده دونما إشراف أو توجيه).

وقلت أنا: (بل أطلقه عقل مشرف مدبر).

إن الافتراض العقلي ليس سواء، إنه بالنسبة إليّ الحق الذي لا محيص عنه، وبالنسبة إليك الباطل الذي لا شك فيه، وإن كان كفار عصرنا مهرة في شتمنا نحن المؤمنين ورمينا بكل نقيصة في الوقت الذي يصفون أنفسهم فيه بالذكاء والتقدم والعبقرية...

إننا نعيش فوق أرض مفروشة، وتحت سماء مبنية، ونملك عقلاً نستطيع به البحث والحكم، وبهذا العقل ننظر ونستنتج ونناقش ونعتقد.

وبهذا العقل نرفض التقليد الغبي، كما نرفض الدعاوى الفارغة، وإذا كان الناس يهزؤون بالرجعيين كذلك بمن يميتون العقل باسم العقل، ويدوسون منطق العلم باسم العلم، وهم للأسف جمهرة الملاحدة.

لكننا نحن المسلمين نبني إيماننا بالله على اليقظة العقلية والحركة الذهنية، ونستقرئ آيات الوجود الأعلى من جولان الفكر الإنساني في نواحي الكون كله.. في صفحة واحدة من سورة واحدة من سور القرآن الكريم وجدت تنويهاً بوظيفة العقل اتخذ ثلاث صور متتابعة في سلم الصعود، هذه السورة

هي سورة الزمر. وأول صورة تطالعك هي إعلاء شأن العلم والغض من أقدار الجاهلين: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[1].

ثم تجيء الصورة الثانية لتبين أن المسلم ليس عبد فكرة ثابتة أو عادة حاكمة، هو إنسان يزن ما يعرض عليه ويتخير الأوثق والأزكى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[2].

ثم يَطّرد ذكر أولي الألباب للمرة الثالثة في ذات السياق على أنهم أهل النظر في ملكوت الله الذين يدرسون قصة الحياة في مجاليها المختلفة لينتقلوا من المخلوق إلى الخالق: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[3].

وظاهر من الصور الثلاث في تلك الصفحة من الوحي الخاتم أن الإيمان لمبتوت الصلة بالتقليد الأعمى أو النظر القاصر أو الفكر البليد.

إنه يلحظ إبداع الخالق في الزروع والزهور والثمار، وكيف ينفلق الحمأ المسنون عن ألوان زاهية أو شاحبة توزعت على أوراق وأكمام حافلة بالروح والريحان، ثم كيف يعود

(1) سورة الزمر، الآية: 9.
(2) سورة الزمر، الآيتان: 17، 18.
(3) سورة الزمر، الآية: 21.

الحطام والقمام مرة أخرى زرعاً جديد الجمال والمذاق تهتز به، يحصد ذلك كله ليكون أكسية وأغذية للناس والحيوان، ثم كيف الحقول والحدائق من صنع ذلك كله؟

قال صاحبي كأنه سكران يهذي : الأرض صنعت ذلك.

قلت: الأرض أمرت السماء أن تمطر والشمس أن تشع وورق الشجر أن يختزن الكربون ويطرد الأوكسجين، والحبوب أن تمتلئ بالدهن والسكر والعطر والنشأ.

قال: أقصد الطبيعة كلها الأرض والسماء.

قلت: إن طبق الأرز في غدائك أو عشائك تعاونت الأرض والسماء وما بينهما على صنع كل حبة فيه، فما دور كل عنصر في هذا الخلق؟ ومن المسؤول عن جعل التفاح حلواً والفلفل حريفاً؟ أهو تراب الأرض أم ماء السماء؟

قال: لا أعرف ولا قيمة لهذه المعرفة!!

قلت: ألا تعرف أن ذلك يحتاج إلى عقل مدبر ومشيئة تصنف؟

فأين ترى العقل الذي أنشأ والإرادة التي نوّعت في أكوام السباخ أو في حزم الأشعة.

قال: إن العالم وجد وتطور على سنة النشوء والارتقاء ولا نعرف الأصل ولا التفاصيل.

قلت له: أشرح لكم ما تقولون: تقولون: أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان مجموعة من العناصر العمياء، تضطرب في أجواء الفضاء، ثم مع طول المدة وكثرة

التلاقي سنحت فرصة فريدة لن تتكرر أبد الدهر، فنشأت الخلية في شكلها البدائي ثم شرعت تتكاثر وتنمو حتى بلغت ما نرى!! هذا هو الجهل الذي أسميتموه علماً ولم تستحوا من مكابرة الدنيا به.

أعمال حسابية معقدة تقولون: إنها حلت تلقائياً، وكانت دقيقة وجليلة تزعمون أنها ظفرت بالحياة في فرصة سنحت ولن تعود، وذلك كله فراراً من الإيمان بالله الكبير!!.

قال وهو ساخط: أفلو كان هناك إله كما تقول كانت الدنيا تحفل بهذه المآسي والآلام، ونرى ثراء يمرح فيه الأغبياء، وضيقاً يحتبس فيه الأذكياء، وأطفالاً يمرضون ويموتون، ومشوهين يحيون منغصين...

قلت: لقد صدق فيكم ظني، إن إلحادكم يرجع إلى مشكلات نفسية واجتماعية أكثر مما يعود إلى قضايا عقلية مهمة.

ويوجد منذ عهد بعيد من يؤمنون بالله ويكفرون وفق ما يصيبهم من عسر ويسر: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾[1].

قال: لسنا أنانيين كما تصف، نغضب لأنفسنا أو نرضى لأنفسنا، إننا نستعرض أحوال البشر كافة ثم نصدر حكمنا الذي ترفضه.

(1) سورة الحج، الآية: 11.

قلت: آفتكم أنكم لا تعرفون طبيعة هذه الحياة الدنيا ووظيفة البشر فيها، إنها معبر مؤقت إلى مستقر دائم، ولكي يجوز الإنسان هذا المعبر إلى إحدى خاتمتيه لا بد أن يبتلى بما يصقل معدنه ويهذب طباعه، وهذا الابتلاء فنون شتى وعندما ينجح المؤمنون في التغلب على العقبات التي ملأت طريقهم وتبقى صلتهم بالله واضحة مهما ترادفت البأساء والضراء، فإنهم يعودون إلى الله بعد تلك الرحلة الشاقة ليقول لهم: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾[1].

قال: وما ضرورة هذا الابتلاء؟

قلت: إن المرء يسهر الليالي في تحصيل العلم، وينصبّ جبينه عرقاً ليحصل على الراحة، وما يسند منصب كبير إلا إلى من تمرس بالتجارب وتعرض للمتاعب، فإن كان ذلك هو القانون السائد في الحياة القصيرة التي نحياها على ظهر الأرض، فأي غرابة أن يكون ذلك الجهاد الصحيح للخلود المرتقب؟

قال ـ مستهزئاً ـ: أهذه فلسفتكم في تسويغ المآسي التي تخالط حياة الخلق وتصبير الجماهير عليها؟

قلت: سأعلمك بتفصيل أوضح حقيقة ما تشكو من شرور، أن هذه الآلام قسمان: قسم من قدر الله في هذه الدنيا، لا تقوم الحياة إلّا به، ولا تنضج رسالة الإنسان إلّا في جوه، فالأمر كما يقول الأستاذ العقاد: «تكافل بين أجزاء الوجود، فلا معنى

(1) سورة الزخرف، الآية: 68.

للشجاعة بغير الخطر، ولا معنى للكرم بغير الحاجة، ولا معنى للصبر بغير الشدة ، ولا معنى لفضيلة من الفضائل بغير نقصةٍ تقابلها وترجح عليها، وقد يطّرد هذا القول في لذاتنا المحسوسة كما يطرد في فضائلنا النفسية ومطالبنا العقلية، إذ نحن لا نعرف لذة الشبع بغير ألم الجوع، ولا نستمتع بالري ما لم نشعر قبله بلهفة الظمأ، ولا يطيب لنا منظر جميل ما لم يكن من طبيعتنا أن يسوءنا المنظر القبيح».

وهذا التفسير لطبيعة الحياة العامة ينضم إليه أن الله تعالى يختبر كل امرئ بما يناسب جبلته، ويوائم نفسه وبيئته، وما بعد الفروق بين إنسان وإنسان، وقد يصرخ إنسان بما لا يكترث به آخر، ولله في خلقه شؤون. والمهم أن أحداث الحياة الخاصة والعامة محكومة بإطار شامل من العدالة الإلٰهية التي لا ريب فيها.

إلا أن هذه العدالة كما يقول الأستاذ العقاد «لا تحيط بها النظرة الواحدة إلى حالة واحدة، ولا مناص من التعميم والإحاطة بحالات كثيرة قبل استيعاب وجوه العدل في تصريف الإرادة الإلٰهية.

إن البقعة السوداء قد تكون في الصورة كلها لوناً من ألوانها التي لا غنى عنها أو التي تضيف إلى جمال الصورة ولا يتحقق لها جمال بغيرها، ونحن في حياتنا القريبة قد نبكي لحادث يعجبنا ثم نعود فنضحك أو نغتبط بما كسبناه منه بعد فواته.

تلك هي النظرة الصحيحة إلى المتاعب غير الإرادية التي

يتعرض لها الخلق، أما القسم الثاني من الشرور التي تشكو منها يا صاحبي فمحوره خطؤك أنت وأشباهك من المنحرفين.

قال متكراً: أنا وأشباهي لا علاقة لنا بما يسود العالم من فوضى فكيف تتهمنا؟

قلت: بل أنتم مسؤولون، فإن الله وضع للعالم نظاماً جيداً يكفل له سعادته ويجعل قويه عوناً لضعيفه، وغنيه براً بفقيره، وحذّر من اتباع الأهواء واقتراف المظالم واعتداء الحدود، ووعد على ذلك خير الدنيا والآخرة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

فإذا جاء الناس فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وتعاونوا على العدوان بدل أن يتعاونوا على التقوى فكيف يشكون ربهم إذا حصدوا المر من آثامهم؟

إن أغلب ما أحدق بالعالم من شرور يرجع إلى شروده عن الصراط المستقيم وفي هذا يقول الله جل شأنه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾[2].

إن الصديق رضي الله عنه جنّد جيشاً لقتال مانعي الزكاة، وبهذا المسلك الراشد أقرَّ الحقوق وكبح الأشرة ونفذ الإسلام، فإذا تولى غيره فلم يتأسَّ به في صنيعه كان الواجب على النقاد أن

(1) سورة النحل، الآية: 97.
(2) سورة الشورى، الآية: 30.

يلوموا الأقدار التي ملأت الحياة بالبؤس.

قال: ماذا تعني؟

قلت: إن شرائع الله كافية لإراحة الجماهير، ولكنكم بدل أن تلوموا من عطلها تجرأتم على الله واتهمتم دينه وفعله.

ومن خسة بعض الناس أن يلعن السماء إذا فسدت الأرض، وبدلاً من أن يقوم بواجبه في تغيير الفوضى وإقامة الحق يثرثر بكلام طويل عن الدين ورب الدين.

إنكم معشر الماديين مرضى تحتاج ضمائركم وأفكاركم إلى علاج بعد علاج. وعدت إلى نفسي بعد هذا الحوار الجاد أسألها: إن الأمراض توشك أن تتحول إلى وباء، فهل لدينا من يأسو الجراح ويشفي السقام أم أن الأزمة في الدعاة المسلمين ستظل خانقة؟[1].

❑❑

إثبات وجود الله

يقول د. أبو الوفا التفتازاني: «كان العلم يتصور الأمور تصوراً مادياً بحتاً إلى أن جاء العالم الشهير (ألبرت أينشتاين) فغيّر ببحوثه الطبيعية النظرة إلى المادة تغييراً حاسما»، وقد صور الفيلسوف الإنكليزي (راسل) ذلك قائلاً: «درسنا العالم الطبيعي فوجدنا المادة عند العلم الحديث قد فقدت صلابتها وعفويتها، إذ حللها العلماء إلى مجموعات ذرية كل مجموعة

(1) قذائف الحق، محمد الغزالي، ص: 141 ـ 146.

منها تنحل إلى ذرات، وكل ذرة تعود بدورها فتنحل إلى كهارب موجبة وأخرى سالبة، ثم مضى العلماء في التحليل، فإذا هذه الكهارب نفسها تتحول إلى إشعاعات!!».

وختم (راسل) كلامه بهذه العبارة: «ليس في علم الطبيعة ما يبرهن على أن الخصائص الذاتية للعالم الطبيعي تختلف عن خصائص العالم العقلي».

ونحن نقول: انتساب ذلك الكون الضخم إلى أصول من الأشعة شيء مثير حقاً.

تُرى من الذي كثف النور وجمد حركته ووزعه على ألوف الأشكال التي نراها؟

إنك لن تعدم سفيهاً يقول لك: تم ذلك من تلقاء نفسه.

وهذا القائل مستعد أن يقول لك أيضاً: أن الصحف في عواصم العالم تصدر عن دورها مليئة بالأخبار والتعليقات والصور متسقة الحروف والأرقام تلقائياً من غير ما إشراف ولا إعداد ولا تبويب ولا ترتيب!

لعمري إن ذلك أدنى إلى التصور من خلق الموت والحياة في هذا العالم الفخم تلقائياً كما يأفك الأفّاكون.

لكن أي عاقل يحترم نفسه ويقدر علمه يأبى هذا المنزلق.

يقول د. التفتازاني: ولعل هذا ما جعل العلامة (أينشتاين) يؤثر الإيمان بالله ويرفض الشبهات التي تختلق ضده، وقد دار حوار بينه وبين صحفي أمريكي يدعى(فيرك) في هذا الموضوع قال فيه الرجل العالم بحسم: إنني لست ملحداً: ولا أدري

هل يصح القول بأني من أنصار وحدة الوجود[1]؟ إن المسألة أوسع نطاقاً من أن تحيط بها عقولنا المحددة.

وعاد الصحفي إلى سؤاله بطريقة أخرى يريد بها هز الإيمان الذي لاذ به هذا العالم، فقال: إن الرجل الذي يكتشف أن الزمان والمكان منحنيان، ويحبس الطاقة في معادلة واحدة جدير به ألا يهوله الوقوف في وجه غير المحدد.

فيرد أينشتاين: اسمح لي أن أضرب لك مثلاً: إن العقل البشري مهما بلغ من عظم التدريب وسمو التفكير عاجز عن الإحاطة بالكون فكيف بخالقه؟

نحن أشبه ما نكون بطفل دخل مكتبة كبيرة ارتفعت كتبها إلى السقف فغطت جدرانها، ثم هي مؤلفة بشتى اللغات. إن هذا الطفل يعلم أن شخصاً ما كتب هذه الكتب، ولكنه لا يعرف بالضبط من هو، ولا كيف كانت كتابته لها ثم هو لا يفهم اللغات التي كتبت بها، وقد يلاحظ الطفل أن هناك طريقة معينة رتبت بها الكتب ونظاماً غامضاً يشمل صفوفها وأوضاعها، نظاماً نحس أثره ولا ندري كنهه.

فهل عدم إدراك الطفل للكتب ومؤلفيها يقوم دليلاً علمياً

---

(1) ليس هذا العالم ممن يعتنق مذهب الوحدة الذي يعرفه الهنود، أو النحو الذي تسرب من الهندوكية إلى بعض الديانات الأخرى، ولكنه يريد أن يقول: أنه يرى الله في كل شيء ويلمح صفاته العظمى في مجال الكون كله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ وعذر الرجل أنه لا يعرف الإسلام فيعبر التعبير المأثور.

على عدم وجود مؤلفين لهذه الكتب؟

بالطبع لا، فذلك الكون بما فيه من صور ومشاهد وقوانين فإن عدم إدراك العقول السطحية الجاهلة التي لا تتأمل خالقها لا يقوم دليلاً على وجود الخالق، ثم أخذ يشرح له دقة النظام الذي لاحظه في الوجود في حدود اختصاصه ولا يدع مجالاً للشك في وجود الله لحظة واحدة:

إن هذا القصور هو موقف العقل الإنساني مهما بلغ من العظمة والتثقيف.

وعاد الصحفي الأمريكي يسأل: أليس في وسع أحد حتى العقول العظيمة أن يحل هذا اللغز؟

فأجاب أينشتاين مرة أخرى يعلل لماذا هو مؤمن، ولماذا يعجز عن معرفة كنه الله فقال: «نرى كوناً بديع الترتيب خاضعاً لنواميس معينة، ونحن نفهم هذه النواميس فهماً يشوبه الإبهام فنؤمن بالله، ولكن عقولنا المحددة لا تدرك القوة الخفية التي تهيمن على مجاميع النجوم».

لو كانت المواد التي يتكون منها هذا العالم الضخم تتراكم بعضها فوق بعض دون تبصر أو حكمة لدلت كثرتها وحدها على غنى واسع وثراء عريض: فإن الأبعاد الآلية لهذا الكون مذهلة، لكن الأمر أبعد ما يكون عن الجزاف والفوضى. إن الروعة لا تكمن في ضخامة الآلة التي نراها بل في الطريقة التي تدور بها وتؤدي وظيفتها، في حبكة الموازنة والضبط والتقدير.

ومن ثم يتجه الإعجاب إلى العقل الواضح الحاسب قبل

أن يتجه إلى أثره المحدد، ولننظر إلى عقلنا الإنساني ـ بين ما ننظر إليه من صنوف المخلوقات ـ ماذا نرى؟

إنه كائن ذكي قدير يبدو ويخفى في أدمغة الألوف المؤلفة من سكان الأرض والأحياء والراحلين، من أين تولّد هذا العقل؟ من الماء والطين كأعشاب الحدائق، هذا فرض مضحك ولا ريب، إنه نفحة من الخالق الأعلى وحده. . .

يقول سير جيمس جينز: «ويجب أن نذكر المقدمات التي يفترضها بعض النقاد من غير علم، فالكون لا يبيح لنا أن نصوره تصويراً مادياً، وسبب ذلك في رأيي أنه قد أصبح من المدركات الفكرية العميقة. إننا واجدون في الكون دلائل قوة مدبرة أو مسيطرة يوجد بينها وبين عقولنا الفردية شيء مشترك، خير ما نصفها به إنها رياضية(!) لأننا لا نجد الآن أصلح من هذا التعبير».

والعلامة الإنكليزي معذور في وصف الإبداع الإلٰهي بهذا الأسلوب، لقد راعه وهو فلكي راسخ أن يجد في نظام الشروق والغروب والدوران والانطلاق دقة تسجد علوم الرياضة في محرابها فقال: (إن التفكير المشرف عليها ليس هو العاطفة أو الأخلاق أو تقدير الجمال، ولكنه الرغبة في التفكير بطريقة تفكير علمي رياضي، بل إنه اعتبر العقل الإنساني أثراً للعقل الكلي الذي توجد فيه على شكل فكر تلك الذرات التي نشأت منها عقولنا، ثم انتهى أخيراً إلى أن الآراء متفقة إلى حد كبير في ميدان الطبيعة إلى أن نهر المعرفة يتجه نحو حقيقة غير آلية ـ أي غير مادية، أي إلى الله الكبير المتعال ـ على هذا

النحو يفكر علماء الكون الكبار ويحكم أئمة العلم الحديث ورواده الكبار[1].

□□

الله أكبر

لقد جادت قريحة الشيخ إبراهيم علي بديوي شيخ علماء الإسكندرية في مصر بهذه الأبيات الرقيقات التي يجعل الإنسان يسجد لله تعالى ويقول: ما أعظمك يارب ، ما عرفناك حق المعرفة، فلنتذوق معه هذه الأبيات:

لله في الأفاقِ آيات لعلَّ
أقلها ما هو إليه هداكا
ولعل ما في النفس من آياته
عجب عجاب لو ترى عيناكا
الكون مشحون بأسرار إذا ما
حاولت تفسيراً لها أعياكا
قل للطبيب تخطفته يد الردى
يا شافي الأمراض من أرداكا؟
قل للمريض نجا وعوفي بعدما
تحجزت فنون الطب من عافاكا؟
قل للصحيح يموت لا مِن علة
مَنْ بالمنايا يا صحيح دهاكا؟

(1) قذائف الحق، محمد الغزالي، ص: 150.

قل للصبر وكان يحفر حفرة
فهوى بها مَنْ الذي أهواكا؟
بل سائل الأعمى خطا بين الزحام
بلا اصطدام: من ذا يقود خطاكا؟
قل للجنين يعيش معزولاً بلا
راعٍ ومرعى: من الذي يرعاكا؟
قل للوليد بكى وأجهش بالبكا
لدى الولادة من الذي أبكاكا؟
وإذا ترى الثعبان ينفث سُمّهُ
فاسأله مَنْ ذا بالسموم حاشاكا؟
واسأله كيف تعيش يا ثعبان
او تحيا وهذا السمُّ يَملأ فاكا؟
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت
شهداً وقل للشهد من الذي حلاّكا؟
بل اسأل اللبن المصنع كان بين
دم وفرث من ذا الذي صفاكا؟
وإذا رأيت الحي يخرج من منايا
ميت فاسأله من أحياكا؟
قل للهواء تحسه الأيدي ويخفى
عن عيون الناس من أخفاكا؟

قل للنبات يجف بعد تعهد
ورعاية من بالجفاف رماكا؟

وإذا رأيت النبت في الصحراء
يربو وحده فاسأله من أرباكا؟

وإذا رأيت البدر يسري ناشراً
أنواره فاسأله من أسراكا؟

واسأل شعاع الشمس يدنو وهي
أبعد كل شيء من ذا الذي أدناكا؟

قل للمربر من الثمار من الذي
بالمر من دون الثمار غداكا؟

وإذا رأيت النخل مشقوق النوى
فاسأله: من يا نخل شقّ نواكا؟

وإذا رأيت النار شب لهيبها
فاسأل لهيب النار من أوراكا؟

وإذا ترى الجبل الأشم مناطحاً
قمم السحاب فسله: من أرساكا؟

وإذا ترى صخراً تفجر بالمياه
فسلْه: من بالماء شق صفاكا؟

وإذا رأيت النهر بالعذب الزلا
لِ جرى فسلْه من الذي أجراكا؟

وإذا رأيت البحر بالملح الأجا
ج طغى فاسأله من الذي أطغاكا؟
وإذا رأيت الليل يغشى داجيا
فاسأله: من يا ليل حاك دجاكا؟
إذا رأيت الصبح يسفر ضاحياً
فاسأله: من يا صبح صاغ ضحاكا؟
يا أيها الماء المهين من ذا الذي سواكا
ومن الذي في ظلمة الأحشاءقد والاكا؟
ومن الذي تعصي ويغفر دائماً
ومن الذي تنسى ولا ينساكا؟
يا أيها الإنسان مهلاً ما الذي
بالله جل جلاله أغراكا؟
يا مدرك الأبصار والأبصار لا
تدري له لكنهه إدراكا؟
أتراك عيني والعيون لها مدى
ما جاوزته، ولا مدى لمداكا؟
إن لم تكن عيني تراك فإنني
في كل شيء أستبين علاكا
يا منبت الأزهار عاطرة الشذا
هذا الشذا الفواح من نفح شذاكا؟

يـا مـجـري الأنـهـار مـا جـريـانـهـا
إلّا انـفـعـالـة قـطـرة لـنـداكـا؟
هـذه عـجـائـب طـالـمـا أخـذت بـهـا
عـيـنـاك وانـفـتـحـت لـهـا أذنـاكـا
الله فـي كـل الـعـجـائـب مـاثـل
إن لـم تـكـن تـراه فـهـو يـراكـا؟
فـاقـبـل دعـائـي واسـتـجـب لـرجـاونـي
مـا خـاب يـومـاً مـن دعـا ورجـاكـا..

□□

الله ربـي

ولله در القائل:

الله ربـــــي لا إلٰـــــه ســـــواه
مـا فـي الـوجـود حـقـيـقـة إلّا هـو
الـشـمـس والـبـدر مـن أسـرار حـكـمـتـه
والـبـر والـبـحـر فـيـض مـن عـطـايـاه
الـطـيـر سـبّـحـه والـوحـش مـجّـده
والـمـوج كـبّـره والـحـوت نـاجـاه
والـنـمـل تـحـت صـخـور الـصُـمّ قـدّسـه
والـنـحـل يـهـتـف حـمـداً فـي خـلايـاه

والناس يمصونه جهراً فيسخرهم
والعبد يسمى وربي ليس يسماه

□□

الكون يتحدث عنِ الله جلَّ جلاله

يروي العالم الهندي المسلم د. عناية الله المشرقي رحمه الله، وهو من أبرز علماء الهند في الطبيعة والرياضيات، ويتمتع بشهرة كبيرة في الغرب لاكتشافاته العديدة وأفكاره الجديدة، يروي الحادثة ويقول: «كان ذلك يوم أحد، من أيام سنة 1909م، وكانت السماء تمطر بغزارة، وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما، فإذا بي أرى الفلكي المشهور السير جيمس جينز ـ الأستاذ بجامعة كمبردج ـ ذاهباً إلى الكنيسة، والإنجيل والشمسية تحت إبطه، فدنوت منه، وسلمت عليه، فلم يرد علي، فسلمت عليه مرة أخرى فسألني: ماذا تريد مني؟ فقلت له: أمرين يا سيدي: الأول هو: أن شمسيتك تحت إبطك رغم شدة المطر! فتبسم السير جيمس وفتح شمسيته على الفور، فقلت له: وأما الأمر الآخر فهو: ما الذي يدفع رجلاً ذائع الصيت في العالم. مثلك. أن يتوجه إلى الكنيسة؟

وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة ثم قال: عليك اليوم أن تأخذ شاي المساء عندي.

وعندما وصلت إلى داره في المساء خرجت(ليدي جيمس) في تمام الساعة الرابعة بالضبط ، وأخبرتني أن السير جيمس

ينتظرني، وعندما دخلت عليه في غرفته، وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاي، وكان البروفيسور منهمكاً في أفكاره. وعندما شعر بوجودي سألني؟: ماذا كان سؤالك؟

ودون أن ينتظر ردي، بدأ يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية ونظامها وجاذبيتها، وأبعادها وفواصلها اللامتناهية، وطرقها ومداراتها وجاذبيتها وطوفان أنوارها المذهلة حتى أنني شعرت بقلبي يهتز بهيبة الله وجلاله.

وأما السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائماً، والدموع تنهمر من عينيه، ويداه ترتعدان من خشية الله، وتوقف فجأة ثم بدأ يقول: يا عناية الله! عندما ألقي نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي، وعندما أركع أمام الله وأقول: «إِنَّك لَعَظِيم» أجد أن كل جزء من كياني يؤيدني في هذا الدعاء، وأشعر بسكون وسعادة عظيمين، وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة. أفهمت يا عناية الله لماذا أذهب إلى الكنيسة؟

ويضيف العلامة عناية الله قائلاً: لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفاناً في عقلي، وقلت له: «يا سيدي لقد تأثرت جداً بالتفاصيل العلمية التي رويتموها لي، وتذكرت بهذه المناسبة آية من آي كتابي المقدس، فلو سمحتم لي، لقرأتها عليكم. فهز رأسه قائلاً: «بكل سرور» فقرأت عليه الآية التالية: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾[1].

فصرخ السير جيمس قائلاً: ماذا قلت؟ إنما يخشى الله عبادُه العلماءُ؟ مدهش وغريب، وعجيب جداً أن هذا الأمر الذي كشفت عنه دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة، من أنبأ محمداً به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك، فاكتب شهادة مني أن القرآن كتاب موحى من عند الله.

ويستطرد السير جيمس جينز قائلاً:

لقد كان محمد أُمياً، ولا يمكن أن يكشف عن هذا السر بنفسه، ولكن(الله) هو الذي أخبره بهذا السر... مدهش...! وغريب، وعجيب جداً[2].

هذه شهادة عالم من مشاهير العلماء يكشف عن بعض آيات الله وصنعه المتقن وقد اهتدى إليه بواسطة تجاربه الدؤوبة.

ولقد أجاد القائل بهذه الأبيات:

سل الواحة الخضراء والماء جارياً
وهذي الصحاري والجبال الرواسيا
سل الروض مزداناً سل الزهر والندى
سل الليل والأصباح والطير شاديا

(1) سورة فاطر، الآيتان: 27، 28.

(2) الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، ترجمة ظفر الإسلام خان، ص: 151، ط5، دار البحوث العلمية 1981.

فلو ضلت هذا الليل وامتد ثرمد
فمن غير ربي يرجع الصبح ثانيا

❑❑

وجود الصانع

سألت جماعة من الدهريين الإمامَ الشافعي ﷺ: ما الدليل على وجود الصانع؟ فقال: ورقة الفرصاد (التوت) طعمها ولونها وريحها وصبغها واحد عندكم؟ قالوا: نعم، قال: فتأكلها دودة القز فيخرج منها الإبريسم، والنحل فيخرج منها العسل، والشاة فيخرج منها البعر، ويأكلها الظبي فينعقد في نوافجها المسك، فمن الذي جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد؟ فاستحسنوا منه ذلك وأسلموا على يديه وهم سبعة عشرة[1]. ورحم الله الزاهد أبا العتاهية حيث برهن ببيتين سامقين على وجود الله تعالى، وجعل في كل مخلوق آية للموجود:

أبا عجباً كيف يعصى الإله
أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية
تدل على أنه الواحد

❑❑

(1) تفسير الجواهري، للشيخ الطنطاوي (1/ 34).